الفزّاعة

عبد العزيز غوردو

الفزاعة / قصص

عبد العزيز غوردو

الطبعة الأولى ، ٢٠٠٨



دار اكتب للنشر والتوزيع

القاهرة ، ١اش المعهد الديني ، المرج

هاتف : ٠٢٢٤٤٠٥٠٤٧

موبايل : ٠١٢٩٢٥١٥٩٢ – ٠١٨٢٣٦٣٠٣٥

E – mail : dar_oktob@gawab.com

المدير العام :

يحيى هاشم

تصميم الغلاف :

حاتم عرفة

تدقيق لغوي :

أحمد منتصر

رقم الإيداع : ٢٠٠٨/١٩٨٧٩

I.S.B.N:٩٧٨- ٩٧٧- ٦٢٩٧- ٤٧- ٠

الفزّاعة

قصص

عبد العزيز غوردو

الطبعة الأولى

٢٠٠٨



دار اكتب للنشر والتوزيع

بين الحلم والموت...

– على سبيل التقديم –

في البدء كانت الحكاية... وأنا... اثنان كنا، فاحتجنا إلى ثالث، إلى قارئ، فهل يكون الشيطان ثالثنا؟

في البدء كانت الحكاية... وأنا... حكايتي إذن، فكن ثالثنا واقرأها، حتى تكتمل الخطيئة... مزقها أو احرقها... مزقني أو احرقني معها... واحرق معها كل ذكرياتي وكل ما سأسببه، عن قصد أو غير قصد...

دعونا نتفق أولا، ورغما عنكم، على أنه ليس هناك بداية لحكاية جديدة، ولا نهاية لها أيضا، هناك فقط تتمة لحكاية أبدية أولى ممتدة ومتشعبة، تتشعب عنها كل مرة حكاية جديدة، نلملم أشلاءها في هدوء، أو في عنف، ونحن نعرف مسبقا أنها غير قابلة للترميم... نلملمها فقط للذاكرة، علها تصارع الزمن لتجد لها مكانا في ظله.

هكذا، ومثلما تبدأ كل حكاية، ابتدأت حكايتي أيضا... لحظتئذ لم أشأ النوم معها/الحكاية، أو مع غيرها، ما يهم؟ كنت فقط أصيح: "لا أريد أن أنام..."

دخلت غرفتي، فوجدتها مستلقية بانتظاري...وحدنا كنا... وحتى قبل أن نتعارف، قامت تبرز لي مفاتنها... غلّقت

الأبواب وقالت هيت لك... تشبثت بي، ورطتني، ومر كل شيء سريعا...

ثم... وجدتُني وحدي، من جديد، بينما كان الزمن يحملها بعيدا... وعدت أصيح: "لا أريد أن أنام..."

رددت الأصداء "لا أريد أن أنام..."

دمدمت الريح ونثرت حكايتي بعيدا، في كل اتجاه، مثل طلع الجلنار، لتتناسل عنها حكايا غيرها، حكايا خلاسية لعلاقة مشبوهة، غير شرعية، ليست لها نهاية، ولا بداية أيضا... ألم نتفق على ذلك رغما عنكم؟

امتدت يد الزمن لتعبث بحكاياي الجديدة/القديمة... تنثرها بعيدا، في كل اتجاه... لتتناسل عنها حكايا غيرها... وغيرها... وغيرها... حكايا في كل مكان... حكايا الحلم والموت... حكايا الموت الذي لا يموت...

الفزّاعـــة

الليلة الأولى

لا أريد أن أنام...

سأظل هكذا مفتوح العينين، جاحظهما، محملقا في كل شيء كمثل مصباح بليد موقد ليل نهار...

لا أريد أن أنام...

يقولون بأن الليل صنو الموت، من يدريني إذن لعلي إذا نمت ألا أستيقظ بعدها أبدا؟ من يدريني أني لو غفوت مجرد برهة أنها ستكون النهاية، سيكون آخر عهدي بالنور... بالحياة... بالوجود...

لا أريد أن أنام...

سأظل هكذا مفتوح العينين، جاحظهما، أنظر ما تفعل الكائنات بعضها ببعض: سأراقب دبيب كل نملة وسقوط كل ورقة توت أو رمان... سأتفحص كيف تغرز الأوابد مخالبها

الحديدية في اللحم الطري، وكيف تبتلع الحيات صغار الضفادع المائية... كيف تخون أنثى طيور الجنة زوجها مع عشيق آخر، وكيف يبكي التمساح وهو يهصر بين شدقيه بقايا فريسته...

سأراقب كل شيء، سأفترس كل شيء بنظراتي: لن تغرز الأوابد مخالبها الحديدية في اللحم الطري إلا تحت نظراتي، ولن تخون طيور الجنة زوجها مع عشيقها الغجري إلا تحت نظراتي، ولن يبكي التمساح إلا وأنا أحملق فيه، أتأمل برودة الدم التي يهصر بها العظام كما الأغصان اليابسة...

لن تغفو لي عين ولن أنام، سأتأمل كيف يسرق القط طعام ولي نعمته... وكيف ينبح الكلب في وجه كلب الجيران، فقط لأنه غريب عن الديار... وكيف يضاجع الذئب أخته التوأم دونما مراعاة لعلاقات الدم والقرابة...

سأراقب كل شيء ولن أنام... سأراقب كل شيء وأصمت: فقد مللت الكلام... سأظل هكذا طوال النهار... وفي الليل، آه من الليل، سأسامر ظلي... أختلي مع ضميري أعذبه وأقض مضجعه: أحكي له عن كل ما رأيت طول النهار، أحكي له عن مخالب الأوابد الحديدية، وعن دموع التماسيح، وعن عشق طيور الجنة الذي تضرب به الأمثال...

هكذا سأعذب الضمير وأرعبه... سأكشفه أمام نفسه... تحت نظراتي سأجرده من ثيابه الكثيرة كالبصل: سأعريه قشرة قشرة، وكلما نزعت عنه غشاء إلا واحمر خجلا، وأنا أفترسه بنظراتي، أرعبه بحكاياتي... بكل ما رأيت طول النهار... وكلما حكيت له حكاية إلا وخلع ثوبا من ثيابه الأربعين... مثل البصل... وفي الأخير، وإذ يتعرى تماما لن أجد أي شيء، فقط كومة من الثياب كانت فوق بعضها البعض... فقط كومة من الثياب كانت تخفي بعضها بعضا... ولا شيء بالداخل غير العفونة...

الليلة الثانية:

انقضى الليل طويلا... كئيبا ثقيلا... وأنا ما زلت أسامر ظلي الذي بدأ يتلاشى مع طلائع النور رويدا رويدا...

ما زلت أرفض النوم أحدق بعيوني في كل شيء حتى لو كان الظلام... سأراقب كل شيء وأصمت: فقد كرهت الكلام...

تعتقد الأوابد أن عباءة الليل الكحلية تخفي جرائمها... لكني أحدق في الظلام فأفضحها، تفترسها مقلتي فتكشف ما يعجز الليل عن إخفائه:

هاهنا تنقض بومة بشعة على جرذ صغير فزع يحاول الفرار دون جدوى... وهناك يتسلل ثعلب مخاتل بين فراخ الدجاج فيثير فيها الرعب والقشعريرة... وهذا الأسد الجبار يلغ بلسانه داخل أحشاء مهر جريح، بينما يتربع عقاب ضخم على أشلاء جيفة قذرة يبعثرها بمنقاره الناري... أما أميرة النحل فتضاجع عشيقها في ارتخاء... غدا سيصبح صريعا على شبّاك الخلية...

سأظل أحدق في الظلام... تفترس مقلتي ما يعجز الليل عن إخفائه: تكشف أغشية البصل حتى النخاع... تعريها... وبعد

قليل ستنقضي خلوتي، سيطلع النهار... لكنه مثل الليل مليء بالأوابد، وأنا سأتأملها وهي تستغرق وقتها في نهش بعضها بعضا، بهدوء... والساعات تنقضي بهدوء، تنطفئ مثل فقاعات الصابون الفارغة... وكلما انقضت ساعة إلا وطرقت مسمارا جديدا في نعشي...

سأظل هكذا، هادئا، قابعا في مكاني، ولن أوذي أحدا: حتى هذه الذبابة التي ترتطم بزجاج نافذتي باحثة عن مخرج... عن منفذ للخارج... فيستفزني طنينها... لن أحرك أي ساكن لإيذائها، سأتركها تبحث عن هذا "الخارج" وهي لا تعلم أنها ستسحق بمجرد عبورها لهذا الزجاج ووجودها بهذا الخارج الذي تجهد نفسها للدخول فيه... سأتركها تختار مصيرها بنفسها ولتتحمل مسؤولية ما اختارت... أما أنا فيكفيني أنني سأظل هكذا قابعا في مكاني ولن أؤذيها...

الليلة الثالثة:

لم أعد أستطيع الاحتمال: عيناي تسدلان الستار بتثاقل وأنا أحاول جاهدا فتحهما... لم أعد أطلب منهما الجحوظ، فقط أن تظلا مفتوحتين كي لا أنام... لكنني مهدود كالحطام... عيناي لم تعودا تسعفاني بعد كأنهما ليستا عيني... وأنا أرفض أن أنام... وهما تسدلان الستار: من يدريني أني لو طاوعتهما للحظة واحدة أنها ستكون النهاية ولن يرفع الستار بعدها أبدا... سينهشني الموت سيد الأوابد...

لكنني لم أعد أستطيع: هناك دائما فرق بين ما نريد وما نستطيع... سأغمض عيني فقط، لكني لن أنام... سأستغرق في التفكير كيما أحطم أشلاء الظلام... لكني بدل أن أستغرق في التفكير... استغرقت، دون شعور مني، في النوم... وتقاذفتني الأحلام:

في عمق الحلم رأيتني أتجول داخل حقل شوفان، عاري الرأس حافي الأقدام... في الطرف الآخر للحقل تنتصب فزاعة ضخمة، متشحة بالسواد وهي تمسك منجلا مصقولا يتطاير الموت منه... تماما كما كان "هوغو" يصور الموت في مؤلفاته... وأنا عاري الرأس حافي الأقدام: أطأ الشوك فيدميني، والحقل فارغ إلا مني... حتى الطيور هجرت هذا الحقل

المشؤوم... وحدها الفزاعة المرعبة تنتصب قبالتي لا تحرك ساكنا... لكنها تشدني إليها بجاذبية قوية... أريد أن أقاومها، أغرز أقدامي في الأرض، لكنها تقتلعني من جذوري كما لو أنها اقتلعت شقائق نعمان، وتسحبني إليها... هكذا، خطوة خطوة... تشدني إليها بينما تنتصب هي دون تحريك أدنى ساكن، والمنجل الصارم بين يديها... أحاول أن أسير في اتجاه آخر لكني لا أستطيع... شيء ما يدفعني نحوها بقوة، ورجلاي داميتان كمثل شقائق النعمان... لم يعد بيني وبينها غير مسافة قصيرة... خطوة أو خطوتان... عيناها الناريتان أوقدتا في وجه ليس بوجه، ودثارها الفولاذي كأنما هو قطعة منه، أو امتداد له! وفجأة، وبسرعة البرق كمارد من الجان، لم أشعر إلا والمنجل السحري يلف عنقي بقوة: يحتز رأسي البائس الذي تدحرج مخضبا بدمائه... وبقيت عيناي في محاجرها تحملقان في جسدي المترنح تارة... وتفترسان الفزاعة التي عادت إلى وضعها الأول الساكن، تارة أخرى... ثم صرخت...

استيقظت مفزوعا من النوم وعدت أجحظ بعيوني في جوف الظلام... لست أدري كم استغرق هذا الكابوس المرعب... خيل إلي للحظة أنها كانت النهاية فعلا، لكني طردت النوم عن مقلتي، نفضت الموت عن جفوني، وعدت أفترس كل شيء بعيوني...

الليلة الرابعة:

هذه الليلة أيضا تكرر الكابوس المرعب عندما تعبت وصرعني النوم:

حقل الشوفان... ورجلاي الداميتان... والفزاعة المشؤومة احتزت رأسي بضربة قوية من منجلها الصارم بعد أن جرتني إليها... تدحرج رأسي ثم صرخت...

استيقظت مفزوعا وبدأت أفترس كل شيء بعيوني...

وفي الليلة الخامسة تكرر الكابوس أيضا... ثم في الليلة السادسة، تكرر بنفس التفاصيل والحيثيات:

حقل الشوفان... حقل الشوفان المشؤوم الذي هجرته الطيور... وفزاعة الأحزان... ورجلاي الداميتان كشقائق النعمان... ثم رأسي الذي تدحرج تحت منجل الشيطان...

الليلة السابعة:

خرجت من الجحر الذي كنت فيه... مثل تلك الذبابة، انطلقت للخارج باحثا عن مصيري: إن بقائي داخل جحري يعني صراعا جديدا مع النوم اللعين، وأنا اكتفيت من الصراع والكوابيس...

بعد أن سرت مدة من الزمن، وجدتني أمام جحري من جديد: عندما تسير في مضمار مغلق فكلما ابتعدت عن نقطة انطلاقك إلا واقتربت منها في نفس الوقت... هكذا أخذت طريقا آخر مختلفا ومشيت الهوينى... ثم مشيت... خيل إلي أنني أمشي في هذا الطريق من سنين طويلة، وباستثناء هذه الخيالات فرأسي فارغ، خال من كل تفكير كالفقاعة... وحدها عيوني تبحث عن شيء تفترسه... وفجأة...

تسمرت في مكاني: وجدتني داخل حقل شوفان...

... تماما كما في الحلم اللعين...

وفي الطرف الآخر للحقل تنتصب فزاعة ضخمة متشحة بالسواد وهي تمسك منجلا صارما ولا تحرك ساكنا...

... تماما كما في الحلم اللعين...

حاولت أن أغرز أقدامي في الأرض لكنها اقتلعتني من جذوري كما لو أنها اقتلعت شقائق نعمان... حاولت أن أسير في اتجاه آخر دون جدوى... جاذبية قوية تشدني إليها وتسحبني، ورجلاي داميتان كشقائق النعمان... أصبحت الآن قريبا منها، حملقت فيها: في العينين الناريتين والوجه الذي لا يشبه الوجه...

... تماما كما في الحلم اللعين...

والمنجل الصارم بين يديها... جف ريقي... جحظت عيناي فزعا... بعد قليل سيتدحرج رأسي مخضبا بدمائه... لم يطل انتظاري: هوت علي بمنجلها كالصاعقة...

صرخت...

... استيقظت مفزوعا وبدأت أفترس كل شيء بعيوني...

قطار السادسة مساء

استيقظت على رنين جرس الباب وهو يقرع قرعا خفيفا، على استحياء، فتحت عيني إلى النصف... لكنني لم أنهض مباشرة، أو بالأحرى لم أستطع أن أنهض مباشرة... فرأسي ثقيلة كأحجار الطواحين لا أكاد أحركها، ودماغي تكاد تنفجر كأن محاكمات نورمبرغ تنعقد فيها...

خيل إلي للحظة أن الجرس لم يقرع إلا في منامي، في إحدى ثنايا دماغي الوسنانة، لكني سرعان ما سمعته يرن من جديد... قرعا خفيفا على استحياء أيضا...

الجو قائظ جدا وأنا أرشح عرقا، نظرت إلى الساعة الحائطية قبالة السرير فوجدت عقاربها تشير إلى الرابعة والربع زوالا! حدقت فيها فزعا وقفزت... لكني سرعان ما عدت لأتهالك على السرير، فالجلسات النازية مازالت منعقدة في دماغي لم يحكم فيها بعد...

أخذت ساعتي اليدوية، من على الطاولة، لأتأكد من الوقت، ولتتأكد معها دهشتي: الرابعة والربع فعلا!

منذ زمن طويل وأنا على هذه الحال، بل لا أكاد أذكر زمنا آخر عشت فيه بشكل مختلف، لا أعرف متى يبدأ الليل ولا متى يبدأ النهار... وقطعا لا أعرف متى ينتهيان... أعتقد أنني ولدت وجلسات نورمبرغ منعقدة في دماغي؟

من عادتي أن أنام نصف عار ما إن يحل فصل الصيف، لم أكلف نفسي عناء ارتداء شيء آخر: فقط خفا خفيفا بجوار السرير ثم توجهت نحو الباب وفتحته، سرت بضع خطوات في حديقة البيت باتجاه الباب الخارجي وفتحته أيضا، فوجدت امرأة في الثلاثينات بساقين طويلتين داخل تنورة حمراء... فوجئت بمنظري النصف عاري لكنها ظلت تنظر إلي بحياء، لا يخلو من استفزاز، وسألتني إن كنت أبحث عن خادمة... نظرت من جديد إلى الساقين وإلى التنورة:

- كلا، لا أريد نساء للعمل و... ولا لأي شيء آخر!

أجل لم أعد أرغب في أي شيء آخر، يخيّل إلي أني على مدى حياتي القصيرة، القصيرة جدا، قد أخذت كل نصيبي من دنياي، من كل ما يخطر ببال الشيطان الذي يسكنني، لم أكن أستمع لأي شيء، لم أكن أسمع غير صوته يصرخ بداخلي:

- "فليحرق العالم، ولأحيا أنا"...

أمس فقط لم أنم إلا متأخرا بعد ليلة صاخبة حمراء، أفرغت خلالها العالم كله بداخلي، بكل تجلياته الجسدية المثيرة لكل أشكال الشبق... وها أنا الآن أستيقظ وقد كرهت كل شيء، أشعر أني عشت ألف عام أو يزيد بعمر الشباب ثم شخت فجأة: في ليلة واحدة نمت وأنا في ريعان الشباب، بعمر أزهار الربيع، واستيقظت أوراق يابسة تذروها رياح الخريف، استيقظت وأنا أحس طعم الرماد في كل شيء، كمثل شاعر عشق ألف خصر، لألف امرأة، ثم مات وحيدا أخيرا... داخل محاكم نورمبرغ الكئيبة...

- كلا، لا أريد نساء للعمل، ولا لأي شيء آخر!

نظرت إليها وهي تبتعد بتثاقل وفي نفسي شيء لم أستطع تحديده بدقة، ليس رغبة، كلا، كلا ليس رغبة بكل تأكيد، هو مزيج من القرف وطعم الرماد وشيء من الغثيان: أحسست قلبي قد وصل إلى حلقي، صفقت الباب بقوة وركضت نحو الداخل...

توجهت نحو الحمام وتقيأت، تقيأت ليلة أمس الصاخبة، تقيأت أحشائي المعصورة، وتقيأت الساقين والتنورة... نظرت إلى المرآة وقد جحظت عيناي، تذكرت أني لم أغسل وجهي

بعد، ولم أحلق ذقني بعد، وشعري ما زال منكوشا كألف علامة تعجب!!!

في المرآة لم أميز ذلك الوجه الذي يطالعني كل يوم، والذي أحمله كل يوم، والذي علي — وعلى الآخرين — تحمله كل يوم، بل وجها آخر غريبا عني... نظرت إلى المرآة من جديد وحدقت فيها: هذا ليس وجهي، أجل، أجل ليس وجهي، ليس أنفي، ليس ذقني، ليست عيوني... نظرت خلفي فلم أجد غيري في الحمام، بدأت أدور حولي كالمجنون أبحث إن كانت قسماتي قد تناثرت على الأرض...

بحثت في جميع أرجاء البيت، لم أشأ أن أنظر إلى المرآة من جديد، خفت أن أنظر إلى المرآة من جديد، خفت من هذا الوجه الذي ليس لي، ليس لي... بي رغبة شديدة في أن ألقيه أرضا وأدوسه بقدمي حتى تنفجر عيناه دما، ومنخراه دما، وجانب شفتيه دما... رغبة ليست سيئة أبدا... بل الأسوأ أن علي حلاقته من جديد مثل كل يوم؟

لكنني لن أحلق هذا الذقن الذي ليس لي، ولن أغسل هذا الوجه الذي يلتصق بي، ولن أحضر فطوري...

فطوري؟

عن أي فطور أتحدث؟ قد يكون غذاء متأخرا أو مقدمة عشاء مبكر، أما أن يكون فطورا فهذا شيء مستحيل! ليكن ما يكون، فأنا لن أحضره وكفى...

أريد أن أفعل شيئا آخر، شيئا جديدا لم أفعله من قبل و لم يخطر على بال الآدمي الذي يسكنني، والذي يوسوس لي كل يوم بأن آكل القرنبيط بدل الفاصوليا... وأن أرتدي القميص الحريري أو ربطة العنق الحمراء الداكنة ومعطف الكشمير الأزرق الكحلي...

عدت إلى السرير واستلقيت، نظرت إلى الجدار فتكسرت نظراتي على العقارب التي تحصد الدقائق والساعات، مخلفة هشيم الزمن وراءها، أخذت ساعتي اليدوية وبدأت أحملق فيها، عقاربها الصغيرة أيضا لا تتوقف عن الدوران، عقاربها الصغيرة مناجل لا تتوقف عن الحصاد، لا أذكر أنها توقفت يوما وهذا أكثر ما يغيظني فيها! شددتها إلى معصمي بقسوة فأحسست مناجلها الخبيثة تمزق شراييني فيترّ دمي ليلطخ السرير وأرضية الحجرة وكل شيء ألمسه. امتلأت يداي دما فمسحت بها هذا الوجه الذي ليس لي، وبدأت أبحث في أرجاء البيت من جديد عساي أجد قسمات وجهي التي اختفت فجأة، وحيثما مررت كنت أخلف بقعا حمراء ورائي.

بحثت تحت الطاولة وتحت السرير وقلبت أواني المطبخ، فتشت الدولاب وبحثت خلف الستائر وعلى أرضية الحمام لعل قسماتي قد تناثرت هناك... فلم أجد إلا بقع الدم التي تكبدت في صورة مقرفة!

نظرت إلى المرآة مرة أخرى فطالعني هذا الوجه البشع الملطخ دما: هذا ليس وجهي... أجل، أجل ليس وجهي، ليس أنفي، ليس ذقني، ليست عيوني: أين اختفت قسمات وجهي اللعينة، أين، أين؟ ودون شعور مني شددت قبضتي وفجرتها على صفحة المرآة فتطايرت أشلاؤها في كل اتجاه وعدت أدور حولي كالمجنون، مررت يدي الملطختين على الزجاج المكسور ثم خرجت...

بدأت أبحث في الحديقة التي بدت لي لأول مرة ليست حديقة، بل قطعة من جحيم، كأنني أكتشفها من جديد، كأنني أراها للمرة الأولى في حياتي. أزهارها اختفت فجأة وعوضها العليق والصبار ونباتات أخرى غريبة، كائنات مخيفة: نباتات بأنياب ومخالب طويلة، وطلعها من زقوم... أصابتني وحشة شديدة وركضت خارج البيت...

ركضت إلى أن وصلت محطة القطار، أنفاسي تكاد تنقطع وركبتاي لا تقويان على حملي، جدران المحطة تترنح حولي

والأرض تميد تحت أقدامي، وخلف اللهاث الذي يطاردني تهالكت على أحد المقاعد بقاعة الانتظار ثم نظرت إلى ساعتي اليدوية: مناجلها لا تتوقف عن الحصاد ولا يبدو أنها تريد التوقف؟

بقيت عشر دقائق على موعد أول قطار، التقطت صحيفة قديمة ملقاة على الأرض وجلست أتصفحها في شرود دون أن أميز الكلمات عن بعضها... لم يتأخر القطار عن موعده دقيقة واحدة، وها هي قاطرته الآن تقتحم المحطة بتثاقل، كمارد جبار،قبل أن تتوقف تحت صليل الفولاذ والفرامل والضجيج...

تسابق الركاب للنزول أو الصعود، أما أنا فلم أحرك ساكنا وظللت قابعا في مكاني أتصفح جريدتي في شرود.

لا أعرف من أين جاء هذا القطار، ولا إلى أين يتجه، والناس أحد اثنين: مسافر راكب ابتدأت رحلته الآن فقط، وآخر نازل انتهى به المطاف حيث شاء؟ وأنا أتصفح جريدتي في شرود... في الجريدة مكتوب أن المسافر الجيد هو الذي لا يعرف أين يتجه، أما المسافر المثالي فهو الذي لا يعرف من أين جاء...

الآن سيقلع القطار من جديد، تحركت قاطرته بتثاقل كما دخلت المحطة أول مرة، كمارد جبار، وخلفها تحركت العربات التي تكوم داخلها اللحم البشري المتعفن...

انتصبت واقفا وكأن الآدمي الذي يسكنني تذكر فجأة شيئا لم يخطر له على بال أبدا؟ طويت الجريدة ووضعتها على الكرسي، فركت الدم المتخثر بين يدي ثم توجهت نحو القطار، لم يعد بيني وبينه غير مسافة قصيرة جدا، بل إن جاذبيته تكاد تقتلعني من مكاني...

مراقب السكة يصفر مشيرا إلي بالابتعاد، لم آبه لصفيره وبدأت أنظر للعجلات وهي تدور متسارعة، وتدور معها رأسي... مناجل ساعتي أيضا تدور وتأبى أن تتوقف! اختلط كل شيء في ذهني: مناجل الساعة، عجلات القطار، قضبان السكة الحديدية، صفير المراقب... وأنا أريد أن أوقف كل شيء: أوقف هذه القضبان اللعينة، وأوقف هذا القطار المجنون، وأوقف هذا الزمان الملعون، وأجد قسمات وجهي الحزينة...

اختلطت الأشياء في رأسي وأنا أريد أن أفصل بينها، لا بد أن أفصل بينها، لا بد أن يتوقف هذا العالم المجنون، لا بد أيضا أن أجد قسمات وجهي الحزينة...

ركبتاي لا تقويان على حملي، القطار يترنح باتجاهي والأرض تميد تحت أقدامي... نظرت حولي، حدقت في قضبان السكة الحديدية التي تشابكت خلف السرعة الجنونية للقطار... وتحت العجلات النارية رأيتُني ألملم قسمات وجهي التي تناثرت مدعوكة تحت صليل الفولاذ والفرامل والضجيج...

الموءودة

- عن الهجرة السرية -

إلى قارب حطمته الأمواج...

أو ملحمة من هلكوا دون فردوس مشتهى

... أساق وأنا في عمر الزهور: لأن قلب أبي تصخّر في وجه العواطف الأنثوية... لأن أبي التزم الصمت، قليلا، ثم أبرز جزأه المخجل من عالمه الداخلي وراح يبحث عن فروسيته في افتراسي، وأنا في عمر الزهور... ما زلت في عمر الزهور... ولأن أبي، الذي طالما عاشر النساء القذرات، يستحيي من الفجور!

لأنني أثير اشمئزاز الوثن البريء، الهادئ الوديع... أثيره بخبثي وبشاعتي، وانحطاطي وسفالتي... ألا تفهم؟

ولأن الأقداح، والتمائم كلها، تأبى أن تفسح لي مجالا بينها؟

ولأن الخيمة ـــ والقصيدة ـــ تأبى أن تتخذني وتدا من أوتادها، مخافة أن أعلق عليها لاحقا راية حمراء...

ولأني لا أرد في المحافل إلا مقرونة بالفضيحة والعار...

لأني كل هذا وغيره... حق لأبي، كريم المحتد، أن يتخلص مني اتقاء الفواحش التي ربما أنوي اقترافها لاحقا... ألا تفهم؟

هذا أبي الذي يبحث عن كبريائه المهزوم في ألمي، يسوقني أمامه كذئب هصور يحاصر حملا على شفير هاوية سحيقة...

هذا أبي الذي يخجل من الوثن والخيمة والقصيدة، يمر عليها منكسا رأسه وهو يحشرني أمامه: أنا الخطيئة القديمة... أنا العار... أنا الجريمة...

هذا أبي الذي يبحث عن كبريائه المهزوم في ألمي... يبحث عن وجوده في عدمي؟

هذا أبي الذي يحشرني أمامه إلى حيث يشتهي! يخبئ في عباءته عاره الذي لا ينتهي... لأنني لا أنتهي... لأنني لن أنتهي... ألا تفهم؟

ها قد وصلنا إلى الشاطئ الموعود، لا داعي، أبي، لأن تنبش البحر بيديك. يقال بأن يديك دافئتان... أما أنا فلم أشعر بدفئهما يوما...لا داعي إذن لأن تلطخهما ببحر سيضم جسمي الكريه... جسمي الموبوء بخطايا لم أقترفها إلا في خيال الوثن والتميمة... والخيمة والقصيدة...

لا داعي لأن تلطخ يديك ودعني أنهش البحر بأنيابي ومخالبي... أثاوي جراحي ورجائي المكتوم... كي تستعيد أنت

كبرياءك المهزوم! دع أنيابي ومخالبي... وعيوبي ومثالبي، تشيد لك صرحا يسند كبرياءك المهزوم!

كنت أشك في آدمية الوثن والخيمة والقصيدة...

أشك الآن في آدمية الوثن والخيمة والقصيدة... وأبي...

ها قد حانت لحظة انتصارك: لحظة تستعيد فيها الاعتبار من "الشيطان" الذي يسكنني، وأنا في عمر الزهور... لأنك أنت أبي الذي طالما ضاجعت النساء القذرات... ستقضي على الفجور؟!

ها قد جاءت لحظة انتقامك... وأنا أنهش البحر بأنيابي، أعب مياهه الأجاج حتى الثمالة، كي تستعيض أنت عن عارك... سأغوص في رماله حتى آخر خصلة في رأسي... سأنام سنة أو سنتين... ثم ستتفتق لينة من رحمي المحموم، فانتزعها كي ترضي الوثن والتميمة، وتستعيد كبرياءك المهزوم!

المجذوب

إلى الذي سألني عن حدود العلاقة
بين الإبداع والجنون.

كان المجذوب أستاذا مبدعا قبل أن يصاب بالجنون... هكذا سمعتهم يقولون عندما دخلت المدينة أول مرة وبدأت أحتك بأهلها.

ما زال ينتج أدبا رفيعا... يقولون... لكنه يخفي كل ما يكتب معه ولا يطلع عليه أحدا، فقط بيتا من الشعر أو جملة قصيرة أنيقة يسرقها منه بعضهم عندما يحتاج "المجذوب" لسيجارة من حين لآخر.

ذات مساء – قبل عشر سنوات – شاهدت شبحه يمر قرب بابي... سقطت منه ورقة دون أن يشعر بها، التقطتها، وخلسة قرأتها: حقا إنه يبدع بجنون، ولعل أروع ما في الإبداع الجنون!؟

في اليوم الموالي سمعتهم يقولون بأن "المجذوب" قد انتحر بعد أن أحرق كل أوراقه، وحدي كنت أعرف بأنه لم يحرقها كلها، وما أرجوه الآن، بعد مرور عشر سنوات من الأرق

والعذاب، وتأنيب الضمير، هو ألا تكون الورقة التي اختلستها ذاك المساء هي التي تسببت في انتحاره.

اليوم، وبعد مرور كل هذي السنين، وأنا أفتش بين أوراقي القديمة عثرت على تلك الورقة: سر المجذوب، ولأن السر لا يسمى سرا إلا لأنه يفشى، فإنني سأبوح به... لعل البوح يحمل لي بعض الخلاص.

نص ما جاء في الورقة، أحدس أنها كانت رسالة، مبتورة، لم يكتب لها أن تبعث أبدا:

"... ما لا تعرفينه يا عزيزتي هو أنك قد نمت معي الليلة... لا تقولي بأنك لم تغادري فراشك و لم تسافري هذا المساء، فما يدريك؟ لعلك سافرت دون شعور منك! أنا على الأقل متأكد من أنك كنت هنا على فراشي، ممتدة بأنوثتك الكاملة، وعيناك الواسعتان مفتوحتان تنظران إلي، وأنا أداعب خصلات شعرك الجميل...

في الصباح فتشت عنك في فراشي فلم أجد إلا الوسادة خالية كئيبة... صدقيني لم يكن حلما، كنت هنا، أنا متأكد من ذلك، وكنا نتحدث ونمرح ببراءة الأطفال!

في الصباح فتشت عنك فلم أجد إلا الوسادة خالية كئيبة... خلت للحظة أنك في المطبخ... ناديتك فلم تجيي... عاودت النداء فلم تجيي... ردت علي الجدران والصمت المطبق تذكرني أنه كان حلما: ما أجمل الحلم إذن، وأجمل منه عيناك الواسعتان.

قد تعتبرين هذا جرأة، أو ربما وقاحة! أما أنا فأعتبره مجرد صراحة بريئة كبكارة العروس، لأنني لا أستطيع إلا أن أكون صريحا معك حتى حدود الخيال.

تعرفين، عندما نكون معا فقلما تلتقي أعيننا، وعندما تلتقي فإننا نرتبك، وتسرع نظراتنا بتغيير الاتجاه درءا لحالة التلبس... في الحلم كنت تنظرين إلي وأنظر إليك، متلبسين كنا، وكنا نلبث كذلك حتى نرتوي، وهل نرتوي؟

في الحلم كانت نظراتنا تتشابك، أصابعنا تتشابك، وكنت تقتربين من وجهي حتى أحس نَفَسك الدافئ يداعب وجنتي وأنت تهمسين في أذني بكلمات جميلة، لا أذكر الآن أي شيء إلا أنها كانت جميلة، وأجمل منها عيناك الواسعتان.

تشبثت يداك النحيلتان بأطراف السرير، شفتاك المحمومتان كانتا تحاصراني، تأسراني برفق، وأنت إلى جانبي كنتِ، ابتسمتُ وابتسمتِ، وأبعدنا التكلف الذي كبلنا طويلا...

توقف الزمن هذه الليلة، توقف الحلم في منتصف الطريق، توقفت شفتاك المحمومتان وفي داخلي حريق... توقف كل شيء على نظرة من عينيك، على ابتسامة... جميلة كانت الليلة، وأجمل منها كانت عيناك الواسعتان.

آه كم يؤرقني هذا الليل الشتوي الطويل، وكم هو عاتٍ هذا الفراش الجليدي الذي علي أن أقارعه وحدي...

آه كم يعذبني هذا الفراق، وكم هو قاسٍ ومدمٍ أن أستيقظ فلا أراك... أن أنام فلا أراك... أن أموت فلا أراكَ..."

ملحوظة: إذا أردت، عزيزي القارئ، تتمة الحكاية فما عليك إلا أن تفتش عنها في الرماد، أي رماد، لعل العنقاء تتكشف لك يوما...

آخــر المقامـــات



"... يحكى أن بديع الزمان الهمذاني "نام" ذات مساء... وبينما هو ثاوٍ على الفراش دون حراك، قام أهله إليه فغسلوه وكفنوه ودفنوه، لكنه استيقظ في قبره وبدأ بالصراخ، وقد سمع بعض المارة صراخه فراحوا ينبشون عليه التراب... لكن السيف كان أسبق من العذل، ومن كل أنواع العتاب...

ها هو الآن يستيقظ من رقدته دون أن يعرف أين هو... دون أن يعرف طبعا بأن خلانه قد غسلوه وكفنوه ودفنوه، بل وتلقوا فيه التعازي أيضا...

يفتح عينيه ويحملق في الظلام... لكن الظلام دامس جدا... دامس وثقيل... يحاول تحريك يمناه، فيجدها محاصرة بالقماش... يتحسس جسده فيجده عاريا كالشرنقة:

– "يا إلهي، هل أكون قد أصبت بالعمى؟ أذكر جيدا أنني قبل أن أنام كنت أحد نظر من الزرقاء! فماذا دهاني؟ ولماذا أنا مكبل في هذا الرداء؟"

يعتقد لأول وهلة أنه مزاح ثقيل فيصرخ مناديا من حوله... لكن ما من مجيب... وحتى صراخه ارتد إليه مزمجرا مكتوما... فهل من مجيب؟

لأمزق هذا الدثار أولا لأعرف أين أنا... يا الله، أنا في جحر للفئران، بل هو قبر من دون شك... فلأتحسس جدرانه بيدي... ما أضيقه... ما أضيقه وما أقرب سقفه... أجل، لم يعد عندي أدنى شك في أنه قبر... إنه بارد، بارد وشديد الرطوبة... وقاس كأنما قَدْ قُدَّ من إحدى ليالي الشتاء!

– "رباه! أهذا كل نصيبي من دنياي؟ شبر بارد مقدود من ليالي الشتاء، وظلام يصيب بالجنون! فلأصرخ قليلا لعل أحدا يسمعني: الغوث... الغوث... أنقذوني... هل من أحد في الخارج... أيها الناس!"

لا يبدو أن أحدا قد سمعني! بل لا يبدو أن أحدا بالخارج أصلا؟ أو ربما يكون قد سمعني جيراني من الأموات... فالقبور مساكنهم الأبدية... عفوا على الإزعاج أيها الأموات... يا جثث الذئاب الهمجية!

يا لي من مخرف! وهل أنا ميت حتى أحكم على الآخرين بالموت؟ ترى كم يوجد من شخص مثلي دفنه "خلانه" حيا؟ كم في هذه المقبرة من "حي" يعوي تحت التراب؟ لعل جاري يعوي الآن دون أن تفهمه الذئاب... دون حتى أن تسمعه الذئاب!

لأهدأ قليلا وأنصت لعلي أسمع شيئا من هذا العواء! ... ماذا...؟ لا شيء غير السكون! لا شيء يمزق ليل الشتاء، ليته يعوي فيمزق هذا الليل اللعين... ليته يعوي، أم تراه قد مل العواء؟

قد يكون نائما... وهل يجرؤ أحد على أن ينام... بعد الذي حصل لي، هل يجرؤ أحد على أن ينام؟ لقد ضاقت الدنيا بالناس حتى أصبحوا يدفنون نيامهم أحياء! يتخلصون من كل من غفت له عين... فويل لمن وسنت عيناه، وويل للإنسان من أخيه الإنسان!

يا إلهي أكاد أختنق، أما من أحد في الخارج؟

– "أيها العالم... أيها الخلق الرجيم... أيها الشيطان..."

لا أحد في الخارج، حتى الشيطان هجر هذا المكان المشؤوم! وبعد... ماذا يفعل الشيطان في مقبرة؟

ترى، من يكون جاري؟ من يرقد خلف الجدار؟ هل هو شاب صريع هوى، أم صبي أرضعته أمه دعافا كي ينام؟ هل هي فتاة تنتظر السندباد الذي لا يعود، أم تراها عجوزا شمطاء حطمتها السنون فتآكلت أوصالها حتى النخاع؟ من... من...؟"

فلأنصت جيدا خلف الجدار، يخيل إلي أنني الآن أسمع أنفاس جاري... إنها تصعد وتهبط بهدوء: ويلاه أيكون كل سكان المقبرة من مثل حالي؟ هل ضاقت الدنيا بالناس حتى أصبحوا يتخلصون من كل من غفت له عين؟ فويل لمن وسنت عيناه... ويل للإنسان من أخيه الإنسان!

ما زالت أنفاس جاري تصعد وتهبط بهدوء... أم تراها محض صدى لأنفاسي؟ إنها تزداد حضورا وتسارعا... هي الآن تملأ علي أجواء القبر في هذا الظلام اللعين...

– "أيها الناس... أيها الخلق الرجيم..."

لا شيء غير الأنفاس تتعالى... تتعالى... تتعالى... ترتطم بالجدران... جدران في كل اتجاه وفي كل مكان... جدران تحاصر حتى الأنفاس، وظلام يصيب بالجنون... ظلام تجحظ فيه العيون فترتد إلى محاجرها كليلة مهزومة... ظلام يخيل إليك أن مصدره ينبع من جوف الناس، فيحاصر الأنفاس...

– "أيها الناس... أيها الخلق الرجيم... أيها العالم/ الجحيم: افتح جدرانك الديماسية... افتح جدرانك الهارية... افتح فجاري الذي لا أعرفه، قد حطمته الجدران... افتح باللعنة بالشيطان!!"

فلتهدأ يا جاري فالعالم قد صم آذانه عنك... فلتهدأ يا صاحبي فلا جدوى من العويل... لا جدوى من العويل... يا صاحبي، كم كان هناك في عالمك العلوي من ألم، ومن جرح، ومن قتيل... ولم تك يا صاحبي بكل هذا العويل... لم تك يا صاحبي بكل هذا العويل...

فلتهدأ يا صاحبي وحاول أن تنام... حق لك الآن أن تنام... وسأحكي لك من بدء الكلام، عن صاحبي المرصوص تحت الركام... عن صاحبي الذي قالوا عنه: "قد مات!"... سأحكي لك عن آخر ما كتبت من مقامات:

"... يحكى أن بديع الزمان الهمذاني "نام" ذات مساء...

السيد سنونو

كل شيء بدأ صبيحة أحد أيام فبراير الدافئة...

عندما طلعت علي طيور السنونو وهي ترمم أعشاشها التي رحلت عنها بداية الخريف الماضي. كنت أراقبها وهي تحمل في مناقيرها كريات ندية من الطين تضعها في مكانها من العش بإتقان شديد.

العش عند كوة صغيرة - بأعلى حجرتي - تمدني بالضوء... في الطابق التاسع. في الواقع ليس هناك طابق تاسع في العمارة، فهي كلها من ثمان طوابق، لكن هناك حجرة بدورة مياه فوق السطح، وأنا أسميها الطابق التاسع... وأنا أسكنها... أقطن إذن في الطابق التاسع!

فتحة العش ضيقة جدا، والطائر يرد جناحيه للخلف كالسهم... يستطيل ليدخل بمرونة عبر الفتحة الضيقة حاملا في منقاره أثاثه: قطعة من القش يدخلها ويغيب فترة قبل أن يخرج

من جديد... يعود حاملا قطعة أثاث جديدة... أو كرية طين ندية... ترى هل هو نفس الطير كل مرة؟ سألت نفسي، وقلت: السنونو كالصينيين كلها تتشابه! أبيض وأسود... ترى ماذا يفعل الطير عندما يغيب في الداخل؟ سؤال آخر أثار فضولي، ثم تعاقبت الأسئلة المحيرة، وتكررت، حتى عدت لأبسطها: هل طيور السنونو فعلا بيضاء وسوداء، أم أن ذلك محض اشتباه لأعيننا الساذجة؟

قررت أن أتجسس عليها، على عالمها السري بالداخل، لكن الكوة بحجرتي لم تكن لتسمح بذلك، لأن جزءا كبيرا من العش موجود أصلا في الزاوية الخارجية للغرفة، ولا يمس الكوة إلا جزء صغير منه، فاتخذت قرارا آخر: أن أنبش ثقبا إلى جانب الكوة وأغطيه بلوح صغير من الزجاج لأراقب ما يجري بالداخل، هذا ما رأيتهم يفعلونه مرة في عالم الحيوان في شريط تلفزيوني، فهل ستسعفني "تقنيات الإنتاج" التي أمتلكها على ذلك؟ على أي فقد اتخذت قراري وكفى...

كان علي كل مرة أن أنتظر رحيل الطير للشروع في العمل... ثم مواصلته وإنهائه بهدوء، وتؤدة، وصبر... مخافة أن ينهدم العش بالخارج... تطلب الأمر استعمال سكاكين المطبخ، ومفك براغي، ومثقاب كهربائي... تطلب الأمر أيضا بضعة أيام... مثل بطل فيلم "الهارب من ألكاتراز"... بضعة أيام لنبش

ثقب صغير، لكن ما الضير في ذلك، فأنا عاطل من دون شغل رسمي، بعد أن فصلت عن العمل بتهمة الشغب، والمشاكسة، وعدم احترام رؤسائي... وتهم أخرى كان لها وزنها في ميزان سيئاتي: تعرف طعم المرارة الذي تحسه عندما تتحالف النقابات مع الحكومة ضدك أيها المسكين!؟

انتهى العمل الآن، الثقب الذي أحدثته بالجدار كان صغيرا، لكنه كاف لأن يسمح لي بالتجسس على العالم الداخلي بالعش... تخيلتني عالِم بيئة ينجز بحثا حول سلوكيات الطيور... سرت مزهوا بضع خطوات في الحجرة... ثم خرجت لمراقبة الفضاء الفسيح. أسندت ظهري للجدار وجلست في انتظار موضوع دراستي...

لم يتأخر في القدوم... والدخول... ثم الخروج... عاد مرة أخرى، ومعه ثلاثة طيور جديدة... حامت جميعها حول العش... أما هو فرد جناحيه للخلف كالسهم وتسلل داخل العش...

في الحقيقة لست متأكدا من أنه نفسه الذي يدخل كل مرة... لم يطل انتظاري، فقد دخل خلفه طائر آخر... أما الآخران فظلا يحلقان حول العش في فضول، ثم التحق بهما طائر ثالث، فرابع، فخامس... بدأت كلها تدور حول العش، في سعادة، أو جنون، لست أدري... تبتعد، تأتي مسرعة

كالسهام، تتوقف في الفراغ كأنما شدت بخيط، ترفرف، تتوقف عن الرفرفة وتتزلق مع الريح في انسياب... لكنها لا تتوقف أبدا، لا تحط على حبل، أو جدار، أو شجر... ترتجف أجنحتها، تضطرب... حتى يخيل إليك أنها تهوي نحو الأرض، بل تكاد تلامسها، وبحركة صغيرة من جناحها تغير اتجاهها تماما، ثم تحلق فجأة في عنان السماء حتى تتضاءل لكنها لا تتوقف عن الطيران... ألا تتعب؟

حدقت فيها عندما اقتربت مني، وخصوصا عندما كانت تريد الدخول إلى العش... اكتشفت أولى الإجابات عن أسئلتي، عن أبسط أسئلتي، تعلمت الآن أن لونها ليس أسودا، كما كان يخيل إلي، بل كحلي مخضر، اخضرارا قاتما براقا، وصدرها يميل للرمادي الفاتح، الفاتح جدا... ذيلها أيضا ليس متماثلا، فمنها من له ذيل أطول من الآخر... أما ذقنها فأحمر...

***

اليوم الموالي

استيقظت باكرا جدا، انتظرت مجيئها... نفس الحركات والسكنات، نفس المسار اليومي المضني، ألا تمل من الطيران؟ ألا تمل من ممارسة جنونها؟ أين باتت الليلة؟ فكرت في أن بعضها ربما جاورني هذا العش دون أن أنتبه إليه... لذلك ظللت طيلة النهار منشغلا بشيء واحد: انتظار المساء، حتى إنني أهملت نفسي، ونسيت طعامي... ظللت مركزا فقط على مجيء الليل لأعرف من يبيت في العش...

وأخيرا جاء المساء... تسلل الأول داخل العش... بعد برهة تسلل الثاني... لم أنتظر المزيد، أسرعت إلى زاوية الحجرة الخارجية... وضعت طاولة وفوقها كرسي قديم مهترئ، الواقع أن الطاولة لا تقل عنه اهتراء، ثم صعدت عليهما لأصل العش، وأنا أنتظر بين لحظة وأخرى أن تنكسر الطاولة أو تنخلع إحدى أرجل الكرسي فأنزلق... بسرعة أغلقت مدخل العش... ثم سحبت الطاولة والكرسي لداخل الغرفة، صعدت عليهما من جديد... أطللت من الكوة... لا شيء... ثم من الثقب المغطى بقطعة الزجاج... لا شيء تقريبا، العش شبه مظلم إلا من أشياء سوداء تتحرك بالداخل وسط الظلام...

نزلت، فتشت في علبة كرتون تحت السرير، أخرجت منها مصباح بطارية، أستعمله عادة عندما ينقطع النور، ثم عدت

باتجاه العش، وجهت إليه المصباح، بعد أن أوقدت مصباح الحجرة حتى يتضاعف النور، اضطرب الطيران بالداخل... الآن بإمكاني رؤيتهما بوضوح... اشتد اضطرابهما... لم يجدا مخرجا... والظلام أسدل عباءته بالخارج... ليس لهما خارج... لم يعد لهما خارج يمرحان فيه بجنون... لعلهما الآن يفكران كيف دخلا إلى هنا، كيف وصلا إلى هذا المأزق... تتصاعد أنفاسهما... ألاحظ ذلك جيدا، عبر الريش المنفوش... بل أكاد أسمع دقات القلبين الصغيرين تتسارع حتى لتكاد تنخلع من مكانها... والأعين تتحرك في محاجرها تائهة... حائرة...

أدركت أن علي أن أهدئ من روعها الآن... أطفأت مصباح الحجرة، ووجهت مصباح البطارية باتجاه مائل، بحيث لا يمس العش مباشرة... قلت في نفسي: حتى يستأنس الطائران بالتدريج. تركت المصباح معلقا بالكوة... وخرجت إلى السطح... تناولت عشائي (خبز+زيتون+شاي) في الظلام... بعد ساعة صعدت إلى العش – بطريقتي المعتادة – ونزعت قطعة القماش التي أغلقت بها مدخل العش... أسندت ظهري للجدار كعادتي وجلست أراقب ما يحصل: أن يخرج الطائران، أن يرحلا، أن يقسما ألا يعودا لهذا العش الملعون أبدا... انتظرت... أنا الآن الذي أضطرب... أنا الآن الذي يكاد قلبي ينخلع من مكانه... لكن لا شيء من هذا حدث... بعد ساعة أخرى دخلت إلى غرفتي ونمت...

خلال الأيام الموالية...

تعلمت المزيد عن طباع السنونو، عرفت مثلا أن الذكر يختبر العش مدة طويلة قبل أن يبدأ في إقناع الأنثى بأن تقبل به كعش... وكذكر... علمت أيضا أن زيارتها للعش أول مرة لا يعني قبولها به بيتا... وزوجا... وداخل العش تتواصل المفاوضات مدة طويلة، على ما يبدو، قبل أن توافق الزوجة على بيت الزوجية...

***

في صبيحة أحد الأيام... وأيام موالية...

فوجئت بخمس بيضات تملأ العش، حيث بدت السيدة سنونو منهمكة في العمل على تفقيسه، وحيث بدا أن الطبيعة منحتها التخصص في ذلك، من دون مشاركة الذكر، لأنها تمتلك مكيف تدفئة طبيعي عند الصدر، وتحت الريش مباشرة، يمكنها من التحضين بصورة مثالية، كما أنها تقوم بتقليب البيض بمهارة شديدة...

طوال هذه الفترة التي استمرت عدة أيام... تكلف الذكر بالحماية ومد الشريكة والصغار، بانتظام، بالطعام... قبل أن تبدأ الشريكة بالمساعدة في جلب الطعام...

الصغار في البداية أقرب إلى الديدان منها إلى العصافير، وشهيتها مفتوحة أبدا... أما الأبوان فمنهمكان طول الوقت في ترتيب العش وتنظيفه... ومع الأيام بدأ الزغب الأخضر الكحلي في التكاثر لتغطية الأجسام البنفسجية شبه العارية سابقا... أما الفم فمفتوح على عادته، مستعد لابتلاع أي فريسة يحضرها الأبوان... وعندما تريد قضاء حاجتها تخرج مؤخرتها خارج العش...

مع نمو الصغار أصبح العش مكتظا، بحيث ضاق بيت العائلة... وبين الوجبات كان كل صغير يعمل على أخذ مساحة أكبر والوقوف على رجليه ورفرفة جناحيه...

بعد حوالي عشرين يوما على التفقيس...

بدأ الصغار في مغادرة العش لمسافات قصيرة، لكنهم بقوا مجتمعين... وشيئا فشيئا بدؤوا في تعلم الطيران... القفز من مكان إلى مكان قريب... تحت مراقبة السيد والسيدة سنونو...

استمرت هذه الحال عدة أيام... اندمجتُ خلالها تماما مع عائلتي الجديدة، حيث طالما نقلت خلسة قطعة قش إلى العش، أو يرقة إلى أحد الأفواه الشرهة، عندما يغيب الأبوان... أما علاقتي بالعالم الخارجي فأصبحت شبه مقطوعة، وللضرورة فقط، كقضاء بعض أعمال السخرة لمن يطلبها مني، مقابل دريهمات معدودة، أو زيارة الدكان، أسفل العمارة، للتسوق بالحد الأدنى من الضروريات... أما بقية وقتي فأقضيه معها، مع السيدة سنونو وبقية فراخها، بعد أن لاحظت في إحدى الأمسيات أن السيد سنونو لم يعد... لم يعد أيضا اثنان من الفراخ... ماذا حصل لهم بالخارج؟ سؤال لن أجد له جوابا أبدا... كل ما أذكره تلك الأمسية أن السيد سنونو واثنين من فراخه لم يعودوا، وأن السيدة سنونو باتت تحضن فراخها كالمجنونة... عندها اتخذت أخطر قرار في حياتي: لن تضيع مني السيدة سنونو، ولا بقية الفراخ... هذا عهد قطعته على نفسي... ولو اقتضى الحال أن أضع لي عشا إلى جوارها، وأن أنام إلى جوارها، وأن أطير إلى جوارها...

جمعتُ قطعا خشبية من جهات مختلفة بالمدينة، بما فيها مزبلتها العمومية، وتوسلت قطعا أخرى من نجار أعرفه... اقتلعت المسامير من الخشب واحدا واحدا، قبل أن أعيد تركيبها، على طريقتي، من جديد... قلت في نفسي: عندما تكون المطرقة هي الأداة الوحيدة التي تمتلك، فلا غرابة أن ترى الأشياء كلها مسامير... حتى الناس مسامير... هكذا تعامل معي رؤسائي في العمل من دون شك؟

كثر القطع والطرق على سطح العمارة... اشتكاني سكانها إلى المالك... قالوا تصرفاتي غريبة مريبة، وبي مس من الجنون... لأني صنعت لي عشا، على منصة بجوار الكوة، عند أعلى حجرتي، وهذا شيء لا يفعله إلا المجانين... قال المالك علي أن أغادر العمارة عند نهاية الشهر... لكني أجبته بأني لا أستطيع المغادرة... فلمن سأترك عائلتي، لمن سأترك فراخي التي أفقست من بيضها قبل أيام؟ قلت له أن ينتظر على الأقل بضعة أيام أخرى حتى يكتمل نموها... لكنه رفض...

نمت تلك الليلة حزينا، مثل كلمة حب في قصيدة من جليد... من حديد... من صديد... وساوسي وأشجاني احترقت في مبخرة من نحاس... لتطرد الجن من رأسي... لتطرد النعاس... وفي الحلم كانت تمطر زخات خفيفة، وكنت أنا والسيدة سنونو نسير مختبئين تحت مظلتها الملونة... ارتعدَتْ

قليلا إلى جانبي، فطلبتُ منها أن تحتمي داخل معطفي ففعلتْ... ارتعدتُ أنا عندما أحسست رأسها يميل على كتفي مثل "عصفورة" صغيرة تنام...

في الصباح قالت لي السيدة سنونو: "هذا يوم آخر عليك أن تعيشه"، ثم أردفتْ: "لم لا تحاول أن تنام؟"... أجبتُ: "لكني قمت من النوم توا"...

قالت: لا شيء عاد كما كان... لا الناس عادوا ناسا ولا الجدران جدرانا... لا الحقول... لا المنازل... ولا الأحزان أحزانا... لا اليقظة... لا النوم... حتى الموت لم يعد كما كان...

قالت: سأبوح لك بسر لم أفشه من قبل...

كنت أعرف أنها قالت لي نفس الكلام مرات عديدة... منذ أن حللت مكان السيد سنونو وبدأت النوم إلى جوارها، كنت أعرف أيضا أنها قالت نفس الكلام لكل من تعرفه... أو لا تعرفه من عشاقها الكثيرين... ورغم ذلك تركتها تبوح...

قالت: "لم يعد هناك ما يفعل في هذا الوجود، على الإنسان أن ينتهي، أو يتحول إلى سنونو..." ثم صفقت جناحيها بقوة وطارت... اختفت في عنان السماء... صعدتُ أعلى الجدار وناديتها... فلم تجب... صرخت فلم تجب... سقسقتُ لها

فاستدارت... سقسقتُ أكثر فأحسست الريش ينمو على جسدي... سقسقتُ بقوة أكبر فتسارعت وتيرة نموه...

كان الجدار عاليا إلى ما لا نهاية... التفت إلى يميني فوجدته ممتدا إلى ما لا نهاية... وإلى ما لا نهاية امتد إلى يساري... اقتربت منه، لامسته، تحسسته، بدأت أتسلقه كالعنكبوت... خطوة خطوة، ومع كل خطوة كان الريش يزداد نموا على ظهري، بالأسود، عفوا بالكحلي المخضر اللامع، والأبيض الرمادي على صدري، تمتد أجنحتي على كتفي، وذراعي تضمران... تتضاءلان... تختفيان...

حدث ذلك صبيحة أحد أيام سبتمبر، لم أنتبه إلا والعشرات، بل المئات، من طيور السنونو، تجتمع حولي: على الكابلات وأسلاك الكهرباء، وعلى أسطح المنازل طلبا للتدفئة، واستعدادا لموسم هجرة الخريف... ميزتُ فراخي الثلاثة بينها بصعوبة... فكلها تتشابه... حطت السيدة سنونو بجواري فجأة وقالت: ماذا تنتظر، أنت قائدنا في رحلتنا الجديدة... كثرت السقسقة لتؤلف مقاطع من موسيقى شوبان... وكثر معها الريش على جسدي... والأزهار تناثرت مثل قطع الثلج متراقصة في هفهفة الريح... والناس في الأسفل يهرولون، هربا من زخات المطر الخريفية الخفيفة، بعضهم اختبأ تحت مظلات سوداء... بعضهم الآخر احتمى بالجرائد المطوية... والعشاق احتموا بقصائد الحب اليابانية:

"كانت تمطر يا حبيبتي،

لكني اتخذت من حبك مظلة!"

***

وأنا، مزهو بالجناحين اللذين نبتا على كتفي، مزهو برفيقتي، مزهو بقيادة الفريق... أريد أن أمتد مع الريح كثوب منشور على حبل غسيل... يريد أن ينفلت بامتداد الريح... علمت بأن الشرنقات تبحث عن غصن تتمسك به وتتدلى إلى الأسفل حتى تغير جلدها وتبرز أجنحتها... أما أنا فقد برزت أجنحتي منذ مدة طويلة... وما علي الآن إلا نشرها والتحليق مع الطيور المهاجرة... نشرت جناحي، وانسبت من الطابق التاسع، مع الريح... مع الطيور المهاجرة... وأنا أحلم بالعودة إلى عشي عند بداية الربيع المقبل...

وصية محتضر

- ١ -

استيقظت مذعورا هذا الصباح... يخيل إلي أن سريري طاحونة هوائية وأنا مشدود إليها... وهي لا تنفك عن الدوران... تحسست نفسي إن كنت ما زلت قطعة واحدة!

الشمس لم تبزغ بعد، ورغم ذلك أحس أنني لا أرغب في مزيد من هذه الطاحونة، وبدأت أنتظر مرور الوقت دون جدوى.

الجو قارس جدا، وبي رغبة شديدة في الاستحمام بالماء البارد، لكني عندما فتحت الصنبور وجدت الماء قد قيدوه،

فعدت إلى طاحونتي واستلقيت، ثم استرخيت، خفت أن أعود إلى الليل والكابوس، أن أبحر في جوف الظلام من جديد...:

رأيت، فيما يرى النائم، أن ألف غراب مسمرة على شجرة عارية دون أوراق... وأن ألف عقاب قد حطت فوق جثث منتنة منتشرة هنا وهناك... كلا لم يكن المشهد من إحدى دول المجاعة بأفريقيا السوداء، ولا من أجواء حروب الشرق الأوسط الطاحنة، بل كان في مكان ما، آخر، لم أستطع تحديده بالضبط، لكني متيقن من أنه مكان ما في هذا العالم، لأني لا أعرف عالما غيره، لكن أين بالضبط؟ لست أدري! ربما كل العالم، بالضبط، لست أدري!

أمامي شفق يمتد إلى ما لا نهاية، وإلى ما لا نهاية يمتد ما ورائي، وعندما أردت الصراخ لم يسمعني أحد سواي... والغربان تطير ثم تعود إلى أغصانها ببلادة، والعقبان تنخر الجثث ببرود شديد... ولم يسمعني أحد سواي!

قذفت حجرا إلى السماء... لم يلبث أن عاد إلى مستقره بالأرض، ثم قذفت حجرا ثانيا وثالثا ورابعا... عادت جميعها إلى الأرض ولم يتحول أي منها إلى كيوبيد، وعندما تعبت جلست فوق صخرة عالية وبكيت... ولم يسمعني أحد سواي... وفجأة كأن الحلم تمزقت أشلاؤه وتطايرت، وجدتني

أتجول داخل مستشفى للأطفال، أو لعله كان ملجأ، لم أستطع أن أحدده بدقة... إلا أن له علاقة بالأطفال، هذا شيء أنا متأكد منه كما أنا متأكد من أنني لا زلت قطعة واحدة... فهل سأستمر قطعة واحدة؟

بجواري طفل أضاع داره... وأمه... وأضاع ذاته... كان يبكي بصمت، أو في نهاية ببكاء عنيف أقنعه في النهاية بألا فائدة من الصراخ... فأتم حزنه بصمت... عندما نظرت إليه حك عينيه ثم ابتسم كأنما وجد ضالته! أنا لست ضالة أحد... لطمته بقبلة ثم رحلت... عد يا بني... فقد أتموا قميصك/كفنك الجديد!؟

أنا لم أكن هكذا... هم حولوني إلى "هذا"، هم حولوا روحي من جسدها إلى جسد غريب لا تعرفه، ولا تطمئن إليه...

... فعد يا بني... فقد أتموا قميصك الجديد!؟

ماذا لو كانت الأحاسيس سرابا والعواطف أوهاما؟ ماذا لو كان ما يخالجنا من شعور لا يعدو كونه تمثيلا وأكاذيب ألّفناها ثم صدقناها؟؟

"غريب" يعبر المدينة، ثم... لم ينتبه الناس إلا على صوت فرامل قوية وارتطام شديد، و"الغريب" ممدد وسط الطريق...

"امرأة" كانت تبحث عن طفلها منذ حين، وعندما رأت حلقة الناس تتجمع حول الحادث جن جنونها، وبدأت تشق طريقها وسط الزحام: حملقت في الجثة لحظة، فعاد لها صوابها... فهو ليس طفلها! فهو ليس دمها الممدد وسط المدينة...

ماذا لو كانت الأحاسيس سرابا والعواطف أوهاما؟ لماذا اندفعت المرأة كالمجنونة، ولماذا اطمأن بالها فجأة؟ أليس "الغريب" إنسانا كالآخرين؟ فلماذا نميز بين دمنا ودماء الآخرين؟ لماذا نبيح دماء الآخرين؟

... فعد يا بني... فقد أتموا قميصك الجديد!؟

تركته ورحلت، سرت دون اتجاه: فالمسافر الجيد لا يعرف وجهته، أما المسافر المثالي فلا يذكر من أين جاء... على كل، فما زلت أنتمي لهذا العالم... أنا في مكان فيه وكفى... أشغل حيزا لا أبرحه إلا لأشغل غيره، كله جدران وإسمنت، حتى الأشجار أحيطت بالإسمنت، والعواطف من إسمنت، وقلوب الناس إسمنت: بلا دفء ولا حياة، هكذا، إسمنت وكفى! وإذا

صرختَ تُسمّر داخل الإسمنت... ومن يسمعك يحشى صدره بالإسمنت، لذا صرخت و لم يسمعني أحد سواي!

جريت أولا، وإذ تعبت بدأت بالمسير، ثم تثاقلت خطواتي شيئا فشيئا، لكنني لم أتوقف. وددت لو أعرف كم مشيت وكم مر علي من زمن وأنا على هذه الحال دون أن أخرج مما أنا فيه؟ أمامي فضاء لا نهاية له، وما هو ورائي لا يختلف كثيرا أو قليلا عما هو أمامي: دوائر ومربعات، خطوط ومثلثات... وأشكال هندسية عديدة، متداخلة، تتحرك باستمرار، وأنا تائه بينها لا أعرف مبتداي من منتهاي، وكأني تحولت بدوري إلى شكل هندسي يتحرك، كغيره، دون هدف أو غاية: شيء في شيء أو في أشياء غائبة أو ممكنة في الأحلام فقط... مثلها مثل الهلوسة: لا يحسها إلا نائم أو مجنون! ولحظة استيقاظ العقل هي الصاوية التي تنثني عندها الهلوسة، كل هلوسة.

أشجار من إسمنت، وصدور من الإدريج، وعواطف باردة كألواح الثلج، أشياء لا تثير فيك إلا الاشمئزاز والقشعريرة... وأطفال الناس تائهون... ضائعون، كأنما لم يدركوا ضياعهم إلا بعد أن أُولجوا الملجأ، وغلّق العالم العلوي أبوابه وتركهم بالخارج! بأسفل سافلين، كالأشياء الأخرى، كالأشكال الهندسية الأخرى، كالإسمنت، كالإدريج، كالثلج... وككل ما

يبدو أو يغيب، كهذا الحلم الذي يراودني على نفسي، يشتتني ثم يجمعني، وأرزح تحت ثقل لا أعرف عنه أي شيء ما عدا ثقله، وأرفع صوتي بالصراخ... يخيل إلي أن الأرض زلزلت زلزالها من صراخي، وأن العالم كله قد قُضّ مضجعه... لكني صرخت و لم يسمعني أحد سواي!؟

- ٢ -

سلام إذن... سلام على أصنام السلطة الذين يملأون قارورات الغاز، ويشحنون عقول الناس بالخوافي، يحددون المسافات الرابطة بين المدن، ويحددون المسافات الفاصلة بين القلوب... سلام إذن على الغواية، والجسد الديماسي، وعلى الشيطان الذي غره ابن آدم فألقاه في الجحيم... كي يولد من جديد متمردا... متذمرا... كل شيء يزدريه، وكل شيء يلقيه... يتحول مثل عصا موسى... فيخالط بهجة الأسياد بتعاسة العبيد... ويتم ابتلاع الأفاعي، كل الأفاعي... وتعود العصا عصا من جديد!

وأوار سبارتاكوس المنكود لعنة حلت به، يحفه قبل أن يدمره، ويصلّبه عن إساءاته، على صليب أحزانه، فقط لأنه أحب عدوه... عدوه الشرير... حذار أن تحب "عدوك

الشرير"! حذار وإلا فلن يغفروا ذنبك: لا تقل للخبيث عن خبثه، ولا للئيم عن لؤمه، ولا للشرير عن شروره وآثامه... ولا تحب أعداءك الأشرار، وانزو داخل مذبحة أيها "الوحش" الطيب الطاهر: حرّق ديار أعدائك، وانتهك عشقهم، وانهب الأجران، قوت العيال، وانشر الرعب في المدائن...

دعونا من جلدنا الآدمي... واخرجوا بنا إلى جلد آخر، وعاء كحلي رهيب يسف أرواحنا المنتنة بمرارة وأقذاء، ثم يلفظها: نحن عار على كل وعاء... حتى لو لبسنا رداء الارتجاف والمسكنة... نحن الناس "الطيبين"، في نظرنا، الوحوش، في نظر الآخرين، نريد أن نتحول إلى آلهة يونانية تهوي كالصاعقة بغضبها فتحرق كل ما تريد بعنف، ثم تحنو على من تريد برفق وأناة... وتعشق الانتقام!

... نحن عار على الكائنات...

- ٣ -

داخل كل إنسان ملاك ينام... داخل كل إنسان شيطان ينام... لكن المأساة ليست في أن ينام الملاك، وإنما في أن يظل نائما ويتحول إلى شيطان... لكن المأساة ليست في أن ينام الشيطان وإنما في أن يستيقظ كل مرة وكل حين... ليسف

الحياة من "الإنسان"... ليقسمه مرة أخرى قسمين... أو ثلاثة... أو بعدد خطاياه وآثامه: ألف مرة... مليون مرة أو يزيد...

تعبت الآلهة من تشتيتك أيها الإنسان... منذ أن فصلتك أول مرة، فانشطرت... نصفين: الذكر والأنثى... ذلك أن الإنسان – إن كنت لا تعلم – كان يتألف من ذكر وأنثى في جسد واحد قبل أن تمزقه الآلهة القديمة... قبل أن تعاقبه الآلهة القديمة، ففصلت الذكر عن الأنثى... ومنذئذ وهو في شقاء... كل نصف يبحث عن نصفه الثاني، ويطأ في الأنصاف الأخرى... كل نصف يدوس على الآخرين... ويغوص الكل تحت الأقدام...

لتنم الأنصاف قليلا... لتمت الأنصاف قليلا، عسى أن تحبل نيلوفرا بحتقر الأوابد... أنصاف الأوابد... لكن الشيطان النائم في الأنصاف، يعذب الملاك النائم في الأنصاف الأخرى: بالحديد المحمى حتى الزمهرير، بأقصى ما تكون القسوة والفظاظة، بكل ما أوتي من قسوة ومن بأس.

فلتتلذذ أيها "الطيب" بتعذيب "الشرير"! برائحة الدم واللحم البشري المتعفن... ولتستشعر الأنصاف لذة إهانة الأنصاف الأخرى واحتقارها ونشوة تملكها واضطهادها.

لا يسعنا أمام هذا إلا أن نحس طعم الرماد في أفواهنا، نتجرع المأساة المقرفة شيئا فشيئا، وبالتدريج نعتاد عليها... ولا يعود هناك أي خجل في أن نصفق لهولاكو... ولا يعود هناك أي خجل في أن يُلهب نيرون مدينته عندما يريد الاحتفال... فداخل كل إنسان ملاك ينام... داخل كل إنسان شيطان ينام!

— ٤ —

سيدي... إنني "أتألم" لأن إله لوثر عدو لآلهة هوميروس... عدو لكل الآلهة... سيدي إنني أتعذب لأن الآلهة تناصب العداء للآلهة... والإنسان هو الجلاد... والإنسان هو المأساة!

منذ أن تحطمت "المانا" على أسوار المدينة، وهي تبحث عن حصان طروادة المرجاني لتحقيق تسوية مقرفة... حتى لا تظل بالخارج، فتغطيها الطحالب والفطر البري... لكن سيدي أريد أن أسر هامسا في أذنك، أريد أن أصرخ ثائرا في وجهك: إن قلب الإنسان لينخلع من مكانه حين يرى الإنسان!

من المذنب الخائر القوى نقدمه إلى "الطوفت" حتى ترضى علينا الآلهة وترفع مقتها عنا؟

لنصلب "الوهم" ثمنا لجرائمنا... تكفيرا عن خطايانا! ثم نمضي، نطلق العنان للأوابد فينا، تنهش الأرض الندية كالمعاول،

فتهشم أشجارها، وتقلّع أزهارها... لننشئ هيكل سليمان على الحطام... لننهش الأرض كما الجذام...

سيدي... لا تسلني كم الساعة الآن... فهي مثل ما كانت عليه يوم أمس في مثل هذا الوقت... سيدي، لا تسلني ماذا فعلنا بين ساعة أمس وساعة اليوم... ماذا فعلنا بين لحظة تلقيحنا في الأرحام ولحظة طرحنا في النعوش... اسأل قرينك ماذا أوحى إليك؟ أما قريني فقد أوحى إلي بأن أكتب عنك... عنكم... عن كل الناس وكل الأشياء! لكنه احمر خجلا، أو خوفا، حينما أردت الكتابة عنه... تراجع مذعورا إلى الوراء... واسرأب، متعثرا في خفاء!

... كلمة إضافية قبل أن ينخرني التعب، قبل أن يهدني الإعياء... كلمة أخرى قبل أن أوضع في الهيكل مع الحطام... قبل أن أُنهش كما الجذام... قبل أن أصبح موضوع مصادرة... فالحديث عنك: مغامرة...

منذ البدء الأول وضع "بانثيون القرائن" آلة للمكافأة... وآلات للقصاص... لكن الآلة الأولى صدئت، فانهارت الموازنة، ولم تفد أصوات الاحتجاج... ما الذي لوث التاريخ غير الطلاسم المجذّفة مع أصوات الانزعاج؟!

سيدي... في البدء كانت المهزلة... في البدء كانت المقصلة، وكان آدم مشروخا كلوح الزجاج... كان آدم الذي التهم خطاياه: أراد أن يبتلعها فأبت... أراد أن يلفظها فأبت... وظلت شاهدة عليه، "هامة" تنوح في جوف الليل، تناجي عشقها المُدان... فمن أحيا لعبة الضحية والجلاد؟ من أيقظ المقصلة من نومها الطويل؟ تجزّ الرؤوس... تجرّ العويل... تراود الأعناق على عشقها... ثم تستلّها... وتستلّ المشيمة من رحم النخيل...

سيدي... في معزل الكنيسة زهرة جلنار تعترف "لإنليل" أنها حامل... تعاتب الريح التي لقحتها خلسة ذات مساء... بعد أن نذرت نفسها للعبادة والصلاة... لم تشعر إلا وطلع عشيق مخاتل يداعبها... يراودها في ارتخاء، فمالت له لأن جاذبية "التابو" كانت أكبر من أن تقاوم: فهل أذنبتْ أم تراها الريح مذنبة؟

لكن جنينها في جوفها ينام... وغدا، سيوضع في الهيكل مع الحطام... غدا، سينهش الأرض كما الجذام!

سيدي... من "لبوذا" القابع في المعابد بطفل يطهره من آثامه؟ ومن لجسم "المسيح" المعلق في أبواب الكنائس بطفل يهرش لحمه المنتن الموبوء بأخطاء كل من تبعوه: يرجمه... أو

يرحمه؟ ومن لهما بفينوس الممتلئة الحسناء، ينامان في حضنها كالأطفال؟ أو ينامان معها... فلا عليهما حرام!

لتعشق الآلهة بعضها بعضا... وتنام!

فغدا سيُبعث الجنين من الركام... غدا سينهش الأرض كما الجذام!

— ٥ —

نحن معشر الكلمات نتسلل خلسة عبر الآذان... نبحث عن مكان نحتله داخل هذا الجبار المنعوت بعقل الإنسان... نحن معشر الكلمات نشيد قلاعا تمزق الإنسان... تسجن الإنسان: تجعل أجزاءه تتبعثر هاربة من بعضها البعض... فنعيد بناءه الأسطوري بشكل مختلف: نضع الأذن مكان الأنف، ونجعل الأرجل متدلية من البطن... ونضع الحقد مكان الحب والإجرام بدل الفضيلة... فيعوي الإنسان صارخا: أنا قبيح... أنا بشع!!

نحن معشر الكلمات نشيد قلاعا تحطم الإنسان... تسجن الإنسان! تعذبه وتحشره خلف الليل المتعب... تؤرقه فيعلن الحرب على نفسه: يتصبب عرقا باردا... خلف الليل المتعب... خلف القضبان... كثور "الكوريدا" الذي ينتفض ويضرب

بقوة الفراغ/الحجاب!وينتفض حتى النزيف:فمن يوقف الاغتصاب؟

نحن معشر الكلمات نعصف بالقلاع التي شيدتها الكلمات...نرجمها فتتآكل...وتتساقط... ثم نسفيها بازدراء... ونتشل الإنسان... نجمع أشلاءه المتطايرة ونعيد ترتيبها من جديد... نعيد بناءه الأسطوري بشكل مختلف... فيصيح مرحا: أنا إنسان!

نحن معشر الكلمات: طلاسم وتعاويذ سحرية نتسلط عليه، نحنطه فينام...

ونحن معشر الكلمات: معاول تنقر الجماجم منقبة عن العقل المحنط... تسلخ عن المومياء كفنها، وتخبرها أن يوم الحشر قد حان!

نحن معشر الكلمات: ابتكار رائع ورهيب... تفتق عن العقل الجبار ليحاصره ويذله... يذكره بضعفه وبسجنه الأبدي الذي يجره معه أينما حل وارتحل... لا يحب بدوننا... لا يكره بدوننا...لا يغتني بدوننا... لا يحلم بدوننا... لا يولد بدوننا... لا يموت بدوننا، لا ينام!

... دعوني أنام... دعوني أعود إلى طاحونتي التي لا تنفك عن الدوران... دعوني فقد كتبت وصيت:

- X –

– "أيها العالم/الماخور ماذا أكتب على بابك؟"

– "أتركك غير آسف عليك..."

الفهرس